الفصل الثانى

مختارات نثرية

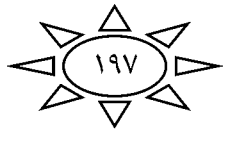

برع الكتاب الأندلسيون فى فن الكتابة ، وتنوع إنتاجهم فيها ما بين رسائل ديوانية أو إخوانية أو وصفية أو مقامات أو غير ذلك، وكان لكل لون من هذه الألوان ما يميزه عن غيره ، ويستقل به استقلالاً يجسد له لوناً من التفرد بين غيره من الألوان ، كما اشتهر فى هذا الشأن كتاب أندلسيون ، ذاع صيتهم ، وعلا نجمهم وهم كثيرون أمثال :

أحمد بن عبد ربه ، على بن يوسف ، أبو عبدالله بن صاحب الصلاة ، الفتح بن خاقان ، ابن أبى الخصال ، أبو عمرو بن الهوزنى ، أبو بكر بن صقلاب وغيرهم كثيرين .

وسوف نورد عليك الآن - عزيزى الطالب - مجموعة متميزة من النثر الأندلسى والذى به تكتمل حلقة الدراسة ما بين شعرية ونثرية ، وقد حاولت - قدر الإمكان- أن يكون اختيارى لهذه النماذج النثرية فيه لون من الجِدّة والطرافة ، من حيث اختيار القطع النثرية ذاتها ، ومن حيث الأطياف والإشارات التى تتناول النص بالتوضيح والشرح والتعليق العام.

ولعل اختيار هذه النصوص بذاتها كان له غاية تعليمية واضحة الدلالة يلمحها الطالب الأريب ويغفل عنها الخامل الكسول .

أولاً : رسالة ديوانية لأبى حفص بن برد :

صاحب الرسالة :

صاحب الرسالة وكاتبها هو الكاتب الأندلسى المعروف :

أبو حفص أحمد بن برد الأكبر ، ولاّه المنصور بن أبى عامر ديوان الإنشاء ، وكتبه من بعده لابنيه المظفر والناصر ، ثم كتبه لسليمان المستعين الأموى وللأمراء الحموديين .

ولعل فى ترجمة ابن بسام الشنترينى له فى ذخيرته ما يدل على سبقه وفضله ، فقد أشاد ببيانه وفصاحته **حين قال عنه** :

" أسمع الصُمَّ بياناً ، واستنزل العُصْم إبداعاً واستحساناً " .

وقد ذكر من رسائله النثرية طائفة كبيرة تدل على رسوخ قدمه فى العلم والكتابة وقد توفى ابن برد الأكبر فى عام ٤١٤هـ.

****

موضوع الرسالة :

الرسالة التى سنتكلم عنها هى إحدى الرسائل الديوانية أو السياسية كما يحلو للبعض أن يطلق عليها ، وهى فى العادة تتناول أمور الديوان ، وتبحث الأمور العامة فى الدولة وتناقشها.

وقد ظهر هذا اللون من الرسائل فى الأندلس فى عصر الإمارة ، عندما استقرت الأحوال العامة فى الأندلس ولاسيما الحالة السياسية والاجتماعية .

ومما يلاحظ على هذا النوع من الرسائل : أنه محدود ، ولا يظهر إلاّ فى حدود ضيقة جداً ، وذلك حين تكون هناك مناسبة تدعو إليه ، أو أمر سياسى عارض يدفع الحاكم إلي إصدار مثل هذا النوع من الرسائل .

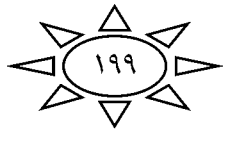

أما عن الرسالة التى اخترناها للدراسة هنا : فقد كتبها أبو حفص بن برد حين كان وزيراً فى بلاد الأندلس . إلي هُزَيل ابن رُزَيْن ، وذلك حين حاول أن يستقل بحكم بعض الجهات فى بلاد الأندلس .

وهنا يحاول ابن برد أن يعيده إلي حظيرة الطاعة ويقنعه بخطأ المسلك الذى سلكه فى أسلوب راقٍ يتأرجح بين الترغيب تارة والترهيب تارة أخرى كما هو شأن هذا النوع من الرسائل .

****

نص الرسالة :

بدأ ابن برد رسالته بالحمد والثناء على الله ، **ثم قال** :

" أما بعد ، آتاك الله رشدك ، وأجزل من توفيقه قسطك ، فإن الله تعالي خلق الخلق غنياً عنهم ، وأنسأهم بمهلٍ غير مُهْمِل ، بل ليحصى آثارهم، وليبلو أخبارهم ، وجعلهم أصنافاً متباينين ، وأطواراً مختلفين ، فمنهم المختص بالطاعة ومنهم المبتلى بالمعصية وبين الفريقين أقوام خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً فعسى الله أن يتوب عليهم ، ولو شاء الله لكان الناس أمةً واحدة ، ولا يزالون مختلفين ولذلك خلقهم ، والسعيد منْ خاف ربه وعرف ذنبه ، وبادر بالتوبة قبل فوتها ، واستعطى الرحمة قبل منعها . وإن كنت تركت قصدك ، وخالفت رشدك ونكبت عن سبيل سلفك ، فلم يوحشك ممن شردت عليه مكروه نالك به ، ولم يؤنسك مما طلبت إليه أملٌ لم تطمع فيه إلاّ لديه بل كنت آملاً من المخاوف بعيداً عن المكاره قريب المُكائب ، رفيع الدرجة ، مُصدّراً فى أهل النصيحة والثقة ، خلا أنه حدث

بينك وبين الحاجب ما لم يزل يحدث بين القواد والعمال على قديم الزمان مما لم يبلغ أن يُخرج ذا الرأى الأصيل عن طبقته ، والله علم أن أمير المؤمنين لم يبخسك فى تلك الهبات حظاً ، ولا أولاك إعراضاً ، ولقد اعتنى بمصلحتك ، وعزم على إزاحة علتك حتى يتهيأ من ذلك ما يفى بأملك لو انتظرته ، واستقام فيه ما يزيد على طلبك لو صبرت إليه ، ولك فى القدر المقدور فَسَحَه ، وفى القضاء المحتوم مندوحه ، ولن تضيق بك السبل عند أمير المؤمنين وأنت بين طاعة سالفة واستقامة موروثة وبين إنابة منتظرة وتوبة مستقبلة ، فبإحدى الحالتين تُحط الذنوب الكبيرة ، ويُغطى على العيوب الكثيرة ، فالآن عصمك الله- واللبب رخىّ ، والمركب وطىّ ، وبابك إلي رضا أمير المؤمنين مفتوح ، وسبيلك إلي حُسن رأيه سهل ، ولا يذهب بك اللّجاج إلي عار الدنيا ونار الآخرة ، إياك ومصارع الناكثين ، وحذار مَوَارِط الغادرين ".

مضمون الرسالة :

تكاد تستولى على هذه الرسالة فكرة عامة وهى دعوة الكاتب لهزيل بن رزين إلي العودة إلي نطاق الطاعة وعدم الخروج على أمر السلطان .

وقد طاف الكاتب فى طيّات هذه الفكرة فى عدد من الأفكار الجزئية التى تكون رسالته وتوضح حدودها ومعالمها ومجالها الفكرى .

وإليك الآن عزيزى القارىء أهم أفكار هذه الرسالة :

١. الدعاء لهذيل بن رزين وتذكيره بنعمة الطاعة وشؤم المعصية.

٢. بيان الخطأ الذى وقع فيه هذيل بطريقة تجنح إلي اللطف والتماس الأعذار.

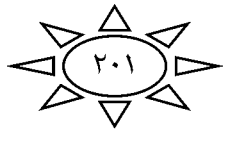

٣. بيان وجهة نظر الحاكم فى تصرفه ضد هذيل وأنه لم يقصد بخسه أو إهانته .

٤. مناشدة هذيل بالرجوع إلي الطاعة والولاء حتى لا يتفاقم الأمر بينه وبين السلطان .

الخصائص الفنية للرسالة :

يمكن أن نستخلص بعض الخصائص الفنية لهذه الرسالة الديوانية وذلك يتبلور في النقاط التالية :

أولاً : سهولة الألفاظ ووضوحها ، ودلالتها المباشرة على المعنى المراد دون عنت أو مشقة .

ثانياً : تنوع الأساليب وثرائها وملاءمتها للمقام ، فهى بين خبر وإنشاء وترغيب وترهيب .

ثالثاً : روعة الإيقاع الموسيقى وذلك يظهر من خلال السجع الذى يهيمن على الرسالة من أولها إلي آخرها .

رابعاً : الاقتباس من القرآن الكريم

ثانياً: من علامات الحب لابن حزم الأندلسى

ابن حزم : هو أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم ، من أسرة كانت تنتيب إلي جد فارسى من موإلي بنى أمية ، وقيل غير ذلك ، كان ملتزماً متديناً عميق الإيمان .

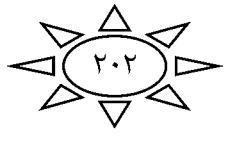

وُلد عام ٢٨٤هـ مُنْت لَيشم من قرى مدينة لَبْلة غربى أشبيلية . وقد رُبِّى على أيدى الجوارى فى قصر الخليفة المؤيد الذى كان أبوه وزيراً له ، مما جعله يتعلم الكثير عن أسرار النساء ، ويستشعر عاطفة الحب مبكراً .

وكتاب طوق الحمامة تصوير قصصى وافعى صريح غير متكلف ، يتحدث فيه ابن حزم عن الحب العذرى العفيف وتجاربه فيه ، وتجارب معاصريه ، وما له من سلطان على النفوس ، وما يثيره من آلام وشكوك ، وما له من ضحايا ، وما يحدث فيه من العذاب والخصام والصلح والتواعد على اللقاء ، ومن الهجر والخداع والغدر والسلوان ، إلي غير ذلك مما يتعثر أهل الهوى فى شباكه .[1]

(باب علامات الحب) من كتاب طوق الحمامة لابن حزم الأندلسى

وللحب علامات يقفوها الفطن ، ويهتدى إليها الذكى. فأولها إدمان النظر والعين باب النفس الشارع ، وهى المنقبة عن سرائرها ، والمُعبِّرة لضمائرها والمعربة عن بواطنها.

فترى الناظر لا يطرف ، يتنقل بتنقل المحبوب ، وينزوى بانزوائه، ويميل حيث ال كالحرباء مع الشمس ، **وفي ذلك أقول شعراً فيه**:[الطويل]

فليس لعينى عند غيرك موقف

كأنك ما يحكون من حجر البيت

أصرِّفها حيث انصرفت وكيفما

تقلَّبت كالمنعوت فى النحو والنعت

---

[1]) يراجع عصر الدول والإمارات (الأندلس) د.شوقى ضيف . ص ٤٩٤ وما بعدها دار المعارف ط٢ .

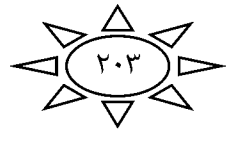

ومنها الإقبالُ بالحديث ، فما يكاد يقبل على سوى محبوبه ولو تعمد [غير][1] ذلك وإن التكلف ليستبين لمن يرمقُه فيه ، والإنصات لحديثه إذا حدث ، واستغراب كل ما يأتى به وكأنه عين المحال وخرق العادات ، وتصديقه وإن كذب ، وموافقته وإن ظلم، والشهادة له وإن جار ، وإتباعه كيف سلك وأى وجه من وجوه القول تناول .

ومنها الإسراع بالسير نحو المكان الذى يكون فيه ، والتعمد للقعود بقربه ، وإطراح الأشغال الموجبة للزوال عنه ، والاستهانة بكل خطب جليل داعٍ إلي مفارقته ، والتباطؤ فى الشىء عند القيام عنه .

وفي ذلك أقول شعراً : [الخفيف]

وإذا قمتُ عنك لم أمش إلاَّ		كَشْى عانٍ[2] يُقاد نحو الفناء
مفى مجيئى إليك أحتثّ كالبد		ر إذا كان قاطعاً للسماء
وقيامى إن قمت كالأنجم العا		لية الثابتات فى الإبطاء

ومنها بَهْتٌ يقع وروعة تبدو على المحب عند رؤية من يحب فجأة وطلوعه بغتة . ومنها اضطراب يبدوا على المحب عند رؤية من يُشبه محبوبه ، أو عند سماع اسمه فجأة **وفي ذلك أقول قطعة منها** :

إذا ما رأت عيناى لابس حمرة		تقطع قلبى حسرة وتفطُّرا
غدا لدماء الناس باللحظ سافكاً		وضرَّج منها ثوبه فتعصفرا

---

[1]) الزيادة ضرورية لاستقامة المعنى .
[2]) العانى : الذليل ، والعانى : الأسير ، وفى الحديث : " عودوا المرضى وفكوا العانى " .

منها أن يجود المرء ببذل كل ما كان يقدر عليه مما كان ممتنعاً به قبل ذلك ، كأنه هو الموهوب له والمَسْعِيُّ فى حظه ، كل ذلك ليُبدى محاسنه ويُرغِّب فى نفسه.

فكم بخيل جاد ، وقطوبٍ تطلَّق ، وجبان تشجَّ ، وغليظ الطبع تطرَّب ، وجاهل تأدَّب وثَفِل [1] تزيَّن وفقير تجمل ، وذى سنّ تفتَّى ، وناسك تفتَّك ، ومصون تبذَّل .

وهذه العلامات قبل استعار نار الحب وتأجج حريقه وتوقّد شعله واستطارة لهبه.فأما إذا تمكن وأخذ ما أخذه فحينئذ ترى الحديث سراراً ، والإعراض عن كل ما حضر إلاّ عن المحبوب جهاراً .ولى أبيات جمعت فيها كثيراً من هذه العلامات ، **منها** :

أهوى الحديث إذا ما كان يذكرُ لى

فيه ويعبُق لى عن عنبر أرجِ

إن قال لم أستمع ممن يجالسنى

إلي سوى لفظه المستطرف الغنجِ

ولو يكون أمير المؤمنين معى

ما كنتُ من أجله عنه بمنعرجِ

فإن أقم عنه مُضطرًّا فإنى لا

أزَلْ مُلتفاً والمشىُ مشىُ وَجِى [2]

عيناى فيه وجسمى عنه مرتحل

---

[1]) الثَّفِل : المتغير الرائحة . يقال : ثفل فلان : ترك الطيب فتغيرت رائحته . (المعجم الوسيط : ص٨٦)

[2]) وَجِىَ يَوْجِى وَجىً : رقّت قدمه أو حافره أو خفه من كثرة المشى ، فهو وجٍ ووجىّ (المعجم الوسيط : ١.٦٦)

مثل ارتقاب الغريق البَرّ فى اللُّججِ

أغصّ بالماء إن أذكر تباعده

كمن تثاءب وسط النقع والوَهَجِ

وإن تكن ممن قصد السماء أقل

نعم وإنى لأدرى موضع الدّرجِ

ومن علاماته وشواهده الظاهرة لكل ذى بصر : الانبساط الكثير الزائد ، والتضايق فى المكان الواسع ، والمجاذبة على الشىء يأخذه أحدهما ، وكثرة الغمز الخفى ، والميل بالإرتكاء ، وتعمد لمسّ اليد عند المحادثة ، ولمس ما أمكن من الأعضاء الظاهرة ، وشرب فضلة ما أبقى المحبوب فى الإناء ، وتحرى المكان الذى يقابله فيه .

ومنها علامات متضادة ، وهى على قدر الدواعى والعوارض الباعثة والأسباب المحركة والخواطر المهيجة ، والأضداد أنداد، والأشياء إذا أفرطت فى غايات تضادها ووقفت فى حدود اختلافها تشابهت ، قدرة من الله عزوجل تضلّ فيها الأوهام .

فهذا إذا أدمن حبسه فى اليد فَعَل فِعْل النار ، ونجد الفرح إذا أفرط قتل ، والغمّ إذا أفرط قتل ، والضحك إذا كثر واشتد أسال الدمع من العينين ، وهذا فى العالم كثير فنجد المحبين إذا تكافئا فى المحبة وتأكدت بينهما تأكيداً شديداً أكثر بهما جدُّهما بغير معنى ، وتضادُّهما فى القول تعمداً ، وخروج بعضهم على بعض فى كل يسير من الأمور وتتبع كل منهما لفظة تقع من صاحبه وتأوّلها على غير معناها ، كل هذه تجربة ليبدو ما يعتقده كل واحد منهما فى

صاحبه ، والفرق بين هذا وبين حقيقة الهجرة والمضادة المتولدة عن الشحناء ومخارجة التشاجر سرعة الرضى : فإنك بينما ترى المحبين قد بلغا الغاية من الاختلاف الذى لا يقدر يصلُح عند الساكن النفس السالم من الأحقاد فى الزمن الطويل ، ولا ينجبر عند الحقود أبداً ، فلا تلبث أن تراهما قد عادا إلي أجمل الصحبة وأهدرت المعاتبة ، وسقط الخلاف وانصرفا فى ذلك الحين بعينه إلي المضاحكة والمداعبة هكذا فى الوقت الواحد مراراً ، وإذا رأيت هذا من اثنين فلا يخالجك شك ولا يداخلك ريب البتةَ ولا تَتَمارَ فى أن بينهما سر من الحب دفيناً ، واقطع فيه قطْع من لا يصرفه عنه صارف . ودونكها تجربة صحيحة وخبرة صادقة ، هذا لا يكون إلاّ عن تكلف فى المودة وائتلاف صحيح ، وقد رأيته كثيراً .

ومن أعلامه أنك تجد المحب يستدعى سماع اسم من يحب ، ويستلذ الكلام فى أخباره هِجِّيراه [1] ، ولا يرتاح لشىء ارتياحه لها ، ولا يُنَهْنِهه [2] عن ذلك تخوف أن يفطن السامع ويفهم الحاضر ، وحبك الشىء يُعمى ويُصمّ.فلو أمكن المحبَّ ألاّ يكون حديث فى مكان هو فيه إلاّ ذُكر منْ يحبه لما تعدّاه ، ويعرض للصادق المودة أن يبتدئ فى الطعان وهوله مُشته ، فما هو إلاّ وقت ما تهتاج له من ذكر منْ يحب ، صار الطعام غصة فى الحلقِ وشجًى فى المرئ ، وهكذا فى الماء وفى الحديث فإنه يفاتحكه مبتهجاً فتعرض له خَطرة من خطرات الفكر فيمن يحب فتستبين الحِوالة فى منطقه والتقصير فى حديثه ، وآية ذلك الوُجومُ والإطراق وشدة الانفلات ، فبينما هو طَلق الوجه خفيف الحركات صار

---

[1]) هِجِّيراه : دأبه وعادته.
[2]) نهنه فلاناً عن الشىء : كفّه عنه وزجره.

مُنطبقاً متثاقلاً حائر النفس جامد الحركة يبرم من الكلمة ويضجر من السؤال.

ومن علاماته : حب الوحدة ، والأنس بالانفراد ، ونحول الجسم دون حدٍّ يكون فيه ، ولا وجع مانع من التقلب ، والحركة والمشى دليل لا يُذب ، ومُخبر لا يخون عن كلمة فى النفس كامنة.

والسهر من أعراض المحبين ، وقد أكثر الشعراء فى وصفه ، وحكوا أنهم رُعاة الكواكب ، ووصفوا طول الليل وفى ذلك أقول وأذكر كتمان السر **وأنه يتوسَّم بالعلامات** :

تعلَّمت السحائب من شؤونى		فعمَّت بالحيا السَّكْبِ الهَتُونِ
وهذا الليل فيك غدا رفيقى		بذلك أم على سَهرى مُعينى
فإن لم ينقضِ الإظلام [1]		ما أطبقت نوماً جفونى
إلافليس فى النهار لنا سبيل		وسُهد زُئد فى كل حين
كأن نجومه والليل يُخفى		سَناها عن ملاحظة العُيون
ضميرى فى ودادك يا مُنايا		فليس يَبين إلاّ بالظُّنون

وفى مثل ذلك قطعة منها :

أرعى النجوم كأنى كُلِّفت أن

أرعى جميع ثبوتها والخُلَّس

فكأنها والليل نيران الجَوَى

قد أضرمت فى فكرتى من حِنْدِسِ [1]

---

[1]) بياض بالأصل.

وكأنى أمسيت حارس روضة

خضراء وشْحُ نَبتها بالنَّرجسِ

لو عـاش بطليموس أيقن أننى

أقوى الوَرَى فى رَصْد جَرْى الكُنَّسِ(٢)

وبعد هذه الإشارة إلي هذه الرسالة الإخوانية ، أترك لأعزائى الطلاب مهمة تحديد الأفكار التى احتوت عليها الرسالة ، والبحث عن كيفية وصول الكاتب إلي مراده والوسائل التى اتكأ عليها فى ذلك ، كما أترك كما أترك لأعزائى الطلاب مهمة الكشف عن الخصائص الفنية التى تميزت بها الرسالة ؛ استفادة بما قدمناه من شرح وتحليل للرسالة الديوانية السابقة.

تم بحمد الله

---

[١]) الحندس : الليل الشديد الظلمة .

[٢]) الكُنَّس : جمع كانس ، وهو الظبى الداخل فى كناسة وهو مأواه بين الشجر. والجوارى الكنَّس : الكواكب السيارة. (المعجم الوسيط : ص٨..)